مطبوعات المجمع

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما ألحقها من أعمال

(٣٠)

زاد المعاد
في
هدي خير العباد

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق

محمد أجمل الإصلاحي

تخريج

مصطفى بن سعيد إيتيم

وفق المنهج المعتمد من الشيخ العلامة

بكر بن عبد الله أبو زيد

(رحمه الله تعالى)

المجلد الرابع

دار عطاءات العلم

دار ابن حزم

وعلىٰ معدته خاصَّةً لتقليل الغذاء، وهذا الحساء يرطِّبها ويقوِّيها ويغذِّيها. ويفعل مثل ذلك بفؤاد المريض، لكنَّ المريض كثيرًا ما يجتمع في معدته خِلطٌ مراريٌّ أو بلغميٌّ أو صديديٌّ، وهذا الحساء يجلو ذلك عن المعدة، ويَسْرُوه[1]، ويحدُره، ويمنعه[2]، ويعدِّل كيفيَّته، ويكسر سورته، فيريحها؛ ولا سيَّما لمن عادته الاغتذاء بخبز الشَّعير. وهي عادة أهل المدينة إذ ذاك، وكان هو غالب قوتهم، وكانت الحنطة عزيزةً عندهم[3]. والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج السَّمِّ الذي أصابه بخيبر من اليهود

ذكر عبد الرزاق[4] عن معمر، عن الزُّهريِّ، عن عبد الرحمن بن

---

(١) أي يكشفه ويزيله. وقد غيَّره بعضهم في ز إلىٰ «ويسرِّيه».

(٢) هكذا في جميع النسخ الخطية والمطبوعة ومصدر المؤلف إلا طبعة الرسالة التي غُيِّر فيها إلىٰ «يميِّعه». وفي كتاب الموفق: «يدفعه» وهو يؤيد صحة ما أثبت.

(٣) «ولا سيما... عندهم» من كلام المؤلف. وقال الموفق: «وما أنفع الحساء خاصة لمن يغلب علىٰ غذائه الحنطة، فالأولىٰ به في مرضه حساء الشعير».

(٤) في «المصنَّف» (١٠٠١٩، ١٩٨١٤)، ومن طريقه البيهقيُّ في «الدَّلائل» (٤/ ٢٦٠-٢٦٣) ـ ومنه النقل فيما يبدو ـ، وقال: «هذا مرسلٌ، ويحتمل أن يكونَ عبد الرَّحمن حمله عن جابر بن عبد الله». وقد أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (٢/ ٢٠١) من طريق محمَّد بن عبد الله، عن الزُّهريِّ، عن عبد الرَّحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن جابر بمعناه. وأخرجه الطَّبراني في «الكبير» (١٩/ ٧٠) من طريق ابن أبي ذئب، عن الزُّهريِّ، عن عبد الرَّحمن بن كعب، عن أبيه، أنَّ امرأةً يهوديَّة... قال الهيثميُّ في «المجمع» (٨/ ٢٩٦): «فيه أحمد بن بكر البالسيُّ، وثَّقه ابن حبَّان وقال: يخطئ، وضعَّفه ابن عديٍّ، وبقيَّة رجاله رجال الصَّحيح». ومن شواهِد احتجام النَّبيِّ ﷺ من سُمِّ خيبر حديثُ ابن عبَّاس وأبي هريرة وعبد الله بن جعفر وعبد الرَّحمن بن =

كعب بن مالك: أنَّ امرأةً يهوديَّةً أهدت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ شاةً مَصْليَّةً بخيبر، فقال: «**ما هذه؟**». قالت: هديَّةٌ، وحذِرت أن تقول: من الصَّدقة، فلا يأكلَ[1]. فأكل النَّبيُّ ﷺ وأكل أصحابه[2]. ثمَّ قال: «**أمسِكوا**». ثمَّ قال للمرأة: «**هل سمَمْتِ هذه الشَّاة؟**». قالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «**هذا العظم**» لساقها وهو في يده؟ قالت: نعم. قال: «**لم؟**». قالت: أردت إن كنتَ كاذبًا أن يستريح منك النَّاس[3]، وإن كنتَ نبيًّا لم يضرَّك. قال: فاحتجم النَّبيُّ ﷺ ثلاثةً علىٰ الكاهل، وأمر أصحابه[4]، فاحتجموا، فمات بعضهم.

وفي طريقٍ أخرىٰ: واحتجم رسول الله ﷺ علىٰ كاهله من أجل الذي أكل من الشَّاة. حَجَمه أبو هند بالقَرْن والشَّفرة، وهو مولًىٰ لبني بياضة من الأنصار[5].

= عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن الحسن وعكرمة وعبد الرَّحمن بن أبي ليلىٰ مرسلًا، وينظر: «المطالب العالية» (١١/ ٢٤٥-٢٤٩ ـ نشرة الشّريّ). وأصلُ القصَّة في الصَّحيحين من غير ذكر الاحتجام.

(١) بعده في ن زيادة: «منها».

(٢) حط: «الصحابة».

(٣) س: «نستريح منك والناس».

(٤) في ن بعده زيادة: «أن يحتجموا» زادها بعض النساخ لعدم إلفه للعربية العتيقة. وكذا في النسخ المطبوعة.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٥١٠) من طريق يونس، والدَّارميُّ (٦٨) من طريق شُعَيب بن أبي حَمزة، كلاهما عن ابن شهاب، عن جابر بن عبد الله به. وهذا أحد الأوجه الَّتي رُويت عن الزُّهريِّ في هذا الحديث، قال المقدسيُّ في «السُّنن والأحكام» (٥/ ٥٤٤): «ابن شهاب لم يُدرك جابرًا»، فالإسناد منقطع، لكن له شواهد كثيرةٌ تقدَّم الإشارة إليها في التَّخريج السَّابق.

وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتَّىٰ كان وجعه الذي توفِّي فيه فقال: «**ما زلتُ أجد من الأُكْلة الَّتي أكلتُ من الشَّاة يوم خيبر حتَّىٰ كان هذا أوانَ انقطاع الأبهر منِّي**». فتوفِّي رسول الله ﷺ شهيدًا. قاله موسىٰ بن عقبة[1].

معالجة السَّمِّ تكون بالاستفراغات وبالأدوية الَّتي تُعارض فعلَ السَّمِّ وتبطله، إمَّا بكيفيَّاتها، وإمَّا بخواصِّها. فمن عَدِم الدَّواءَ فليبادر إلىٰ الاستفراغ الكلِّيِّ، وأنفعه الحجامة ولا سيَّما إذا كان البلد حارًّا والزَّمان حارًّا؛ فإنَّ القوَّة السَّمِّيَّة تسري إلىٰ الدَّم، فتنبعث في العروق والمجاري حتَّىٰ تصل إلىٰ القلب فيكون الهلاك. فالدَّم هو المنفذ المُوصِل للسَّمِّ إلىٰ القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم وأخرج الدَّمَ خرجت معه تلك الكيفيَّة السَّمِّيَّة الَّتي خالطته. فإن كان استفراغًا تامًّا لم يضرَّه السَّمُّ، بل إمَّا أن يذهب، وإمَّا أن يضعُف فتقوىٰ عليه الطَّبيعة، فتُبطِل فعله أو تُضْعِفه.

ولمَّا احتجم النَّبيُّ ﷺ احتجم في الكاهل[2]، وهو أقرب المواضع الَّتي يمكن فيها الحجامة إلىٰ القلب، فخرجت المادَّة السَّمِّيَّة مع الدَّم لا خروجًا

---

(١) «المغازي» (ص٢٥٥) قال: قال الزُّهريُّ: قال جابر بن عبد الله: «واحتجم رسول الله ﷺ علىٰ الكاهل يومئذٍ...» إلخ، ومن طريق موسىٰ أخرجه البيهقيُّ في «الدَّلائل» (٤/ ٢٦٤)، وإسناده منقطعٌ. وأخرجه أيضًا ابن سعد في «الطَّبقات» (٢/ ٢٠١) عن الواقديِّ ــ وهو متروكٌ ــ وجمع فيه أسانيد متعدِّدةً. وأخرج الطَّبراني في «الكبير» (٢/ ٣٥) من طريق ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروةَ مرسلًا، وذكر قصَّة الشَّاة المسمومة، وفي آخرها: «وبقي رسول الله ﷺ بعد ثلاث سنين حتَّىٰ كان وجعُه الَّذي مات فيه».

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٦٠)، والتِّرمذيُّ (٢٠٥١)، وابن ماجه (٣٤٨٣)، وأحمد (١٢١٩١، ١٣٠٠١)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد تقدَّم تخريجه.

كلِّيًّا، بل بقي أثرها مع ضعفه لما يريد الله سبحانه من تكميل مراتب الفضل كلِّها له. فلمَّا أراد الله إكرامه بالشَّهادة ظهر تأثير ذلك الأثر الكامن من السَّمِّ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا. وظهر سرُّ قوله تعالىٰ لأعدائه من اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧] فجاء بلفظ «كذَّبتم» بالماضي الذي قد وقع منهم وتحقَّق، وجاء بلفظ «تقتلون» بالمستقبل الذي يتوقَّعونه وينتظرونه. والله أعلم.

فصل

في هديه ﷺ في علاج السِّحر الذي سحرته اليهود به

قد أنكر هذا طائفةٌ من النَّاس، وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنُّوه نقصًا وعيبًا. وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه ﷺ من الأسقام والأوجاع. وهو مرضٌ من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسَّمِّ، لا فرق بينهما.

وقد ثبت في «الصَّحيحين»[1] عن عائشة أنَّها قالت: سُحِرَ رسولُ الله ﷺ حتَّىٰ إن كان لَيخيَّل إليه أنَّه يأتي نساءه، ولم يأتهنَّ. وذلك أشدُّ ما يكون من السِّحر[2].

قال القاضي عياض[3]: والسِّحر مرضٌ من الأمراض وعارضٌ من

---

(١) البخاري (٥٧٦٥) ـ وهذا لفظه ـ ومسلم (٢١٨٩).

(٢) هذه الجملة من كلام سفيان بن عيينة.

(٣) في «كتاب الشفا» (٢/ ١٨١).

العلل يجوز عليه ﷺ كأنواع الأمراض، ممَّا لا يُنكَر ولا يَقدَح في نبوَّته. وأمَّا كونه يخيَّل إليه أنَّه فعل الشَّيءَ ولم يفعله، فليس في هذا ما يُدخِل عليه داخلةً في شيءٍ من صدقه، لقيام الدَّليل والإجماع علىٰ عصمته من هذا. وإنَّما هذا فيما يجوز طروُّه[1] عليه في أمر دنياه الَّتي لم يُبْعَث بسببها[2] ولا فُضِّل من أجلها، وهو فيها عرضةٌ للآفات كسائر البشر. فغير بعيدٍ أن يخيَّلَ إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثمَّ ينجلي[3] عنه كما كان.

والمقصود: ذكر هديه في علاج هذا المرض. وقد روي عنه فيه[4] نوعان:

أحدهما ـ وهو أبلغهما ـ: استخراجه وتبطيله، كما صحَّ عنه ﷺ أنَّه سأل ربَّه سبحانه في ذلك، فدلَّ عليه، فاستخرجه من بئرٍ، فكان في مُشْطٍ ومُشَاطةٍ وجُفِّ طَلْعةٍ ذكرٍ. فلمَّا استخرجه ذهب ما به حتَّىٰ كأنَّما نُشِط[5] من عِقالٍ. فهذا من أبلغ ما يعالَج به المطبوبُ، وهذا بمنزلة إزالة المادَّة الخبيثة وقلعها من الجسد بالاستفراغ.

والنَّوع الثَّاني: الاستفراغ في المحلِّ الذي يصل إليه أذىٰ السِّحر. فإنَّ للسِّحر تأثيرًا في الطَّبيعة وهيجان أخلاطها وتشويش مزاجها، فإذا ظهر أثره في عضوٍ وأمكن استفراغ المادَّة الرَّديَّة من ذلك العضو نَفَع جدًّا.

---

(١) تسهيل «طروءُه».

(٢) في النسخ المطبوعة: «لسببها». وفي مصدر النقل كما أثبت من النسخ.

(٣) رسمه في جميع النسخ «ينحل».

(٤) «فيه» ساقط من د.

(٥) في طبعة الرسالة: «أنشط» تبعًا للفقي.

وقد ذكر أبو عبيد في كتاب «غريب الحديث»[1] له بإسناده عن عبد الرَّحمن بن أبي ليلىٰ أنَّ النَّبيَّ ﷺ احتجم علىٰ رأسه بقَرْنٍ حين طُبَّ. قال أبو عبيد: معنىٰ طُبَّ: أي سُحِر.

وقد أشكل هذا علىٰ من قلَّ علمه وقال: ما للحجامة والسِّحر؟ وما الرَّابطة بين هذا الدَّاء وهذا الدَّواء؟ ولو وجد هذا القائل أبقراط أو ابن سينا أو غيرهما قد نصَّ علىٰ هذا العلاج لتلقَّاه بالقبول والتَّسليم، وقال: قد نصَّ عليه من لا يُشَكُّ في معرفته وفضله.

فاعلم أنَّ مادَّة السِّحر الذي أصيب به ﷺ انتهت إلىٰ رأسه إلىٰ إحدىٰ قواه الَّتي فيه، بحيث كان يخيَّل إليه أنَّه يفعل الشَّيء ولم يفعله. وهذا تصرُّفٌ من السَّاحر في الطَّبيعة والمادَّة الدَّمويَّة، بحيث غلبت تلك المادَّة علىٰ البطن المقدَّم منه، فغيَّرت مزاجه عن طبيعته الأصليَّة.

والسِّحر هو مركَّبٌ من تأثيرات الأرواح الخبيثة وانفعال القوىٰ الطَّبيعيَّة عنها، وهو أشدُّ ما يكون من السِّحر، ولا سيَّما في الموضع الذي انتهىٰ السِّحر إليه. واستعمال الحجامة علىٰ ذلك المكان الذي تضرَّرت أفعاله بالسِّحر من أنفع المعالجة إذا استُعمِلت علىٰ القانون الذي ينبغي.

---

(١) (٣/ ٤٠٥) والنقل من كتاب الحموي (ص٣١٨). وقد أخرجه أبو عبيد عن هشيم، عن حصين بن عبد الرَّحمن، عن ابن أبي ليلىٰ مرسلًا. وأخرجه أيضًا ابن سعد في «الطَّبقات» (٢/ ٢٠١) من طريق أبي عوانة، والطَّبريُّ في «تهذيب الآثار» (١/ ٥٣٠ - مسند ابن عبَّاس) من طريق ابن إدريس، كلاهما عن حصين، عن ابن أبي ليلىٰ بنحوه. واحتجامُه ﷺ في رأسه مخرَّجٌ في الصَّحيحين.

قال أبقراط[1]: الأشياء الَّتي ينبغي أن تُسْتفرَغ يجب أن تستفرَغ من المواضع الَّتي هي إليها أميل، بالأشياء[2] الَّتي تصلُح لاستفراغها.

وقالت طائفةٌ من النَّاس[3]: إنَّ رسول الله ﷺ لمَّا أصيب بهذا الدَّاء وكان يخيَّل إليه أنَّه فعل الشَّيء ولم يفعله، ظنَّ أنَّ ذلك عن مادَّةٍ دمويَّةٍ أو غيرها مالت إلىٰ جهة الدِّماغ، وغلبت علىٰ البطن المقدَّم منه، فأزالت مزاجه عن الحالة الطَّبيعيَّة له. وكان استعمال الحجامة إذ ذاك من أبلغ الأدوية وأنفع المعالجة، فاحتجَم. وكان ذلك قبل أن يوحي الله إليه[4] أنَّ ذلك من السِّحر. فلمَّا جاءه الوحي من الله تعالىٰ وأخبره أنَّه قد سُحِرَ عدل إلىٰ العلاج الحقيقيِّ، وهو استخراج السِّحر وإبطاله، فسأل الله سبحانه، فدلَّه علىٰ مكانه، فاستخرجه فقام كأنَّما نُشِط من عقالٍ.

وكان غاية هذا السِّحر فيه إنَّما هو في جسده وظاهر جوارحه، لا علىٰ عقله وقلبه. ولذلك لم يكن يعتقد صحَّة ما يخيَّل[5] إليه من إتيانه النِّساء، بل

---

(١) في المقالة الأولىٰ من «فصوله» نسخة الحرم المكي (٣/ أ)، والنقل من كتاب الحموي (ص٣١٩).

(٢) كذا في جميع النسخ الخطية والمطبوعة. وفي كتاب الحموي مطبوعه ومخطوطه (٩٢/ ب): «بالأعضاء»، وهكذا في «فصول أبقراط». وفي شرح ابن أبي صادق للفصول (ل٣٤): «من الأعضاء». ولعل المصنف انتقل بصره إلىٰ كلمة «الأشياء» في السطر السابق، فأعادها.

(٣) هو قول الحموي (ص٣١٨- ٣١٩).

(٤) ما عدا ف، ز، د: «يُوحىٰ إليه».

(٥) في أكثر النسخ: «يميل»، تصحيف.

يعلم أنَّه خيالٌ لا حقيقة له. ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض[1]. والله أعلم.

فصل

ومن أنفع علاجات السِّحر: الأدوية الإلهيَّة. بل هي أدويته النَّافعة بالذَّات، فإنَّه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السُّفليَّة. ودفعُ تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها من الأذكار والآيات والدَّعوات الَّتي تُبطل فعلها وتأثيرها، وكلَّما كانت أقوىٰ وأشدَّ كانت أبلغ في النُّشرة. وذلك بمنزلة التقاء جيشين مع كلٍّ[2] منهما عُدَّته وسلاحه، فأيُّهما غلب الآخرَ قهَرَه، وكان الحكم له. فالقلب إذا كان ممتلئًا من الله مغمورًا[3] بذكره، وله من التَّوجُّهات والدَّعوات والأذكار والتَّعوُّذات وردٌ لا يخلُّ به يطابق فيه قلبه لسانه= كان هذا من أعظم الأسباب الَّتي تمنع إصابة السِّحر له، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه.

وعند السَّحرة: أنَّ سحرهم إنَّما يتمُّ[4] تأثيره في القلوب الضَّعيفة المنفعلة والنُّفوس الشَّهوانيَّة الَّتي هي معلَّقةٌ بالسُّفليَّات. ولهذا غالبُ ما يؤثِّر في النِّساء والصِّبيان والجهَّال وأهل البوادي، ومَن ضعُف حظُّه من الدِّين والتَّوكُّل والتَّوحيد، ومن لا نصيب له من الأوراد الإلهيَّة والدَّعوات

---

(١) هذه الفقرة مستفادة من كلام القاضي عياض الذي نقله الحموي (ص٣١٩) وهو في «الشفا» (٢/ ١٨٢).

(٢) ن: «كل واحد»، وكذا في النسخ المطبوعة.

(٣) ز، حط، د: «معمورًا».

(٤) لفظ «يتم» ساقط من ز.